أسلوب العقاد

للأستاذ سيد قطب

نصف الحياة اضطراب ونصفها أوزان

هذا هو مذهب العقاد فى الحياة ، وهو مذهبه فى الفنون ، وهو رائده فى التعبير ... الشعر حركة فى الضمير ، وهزة فى الشعور — وهذا هو الاضطراب — وهو بعد ذلك لفظ مقرور وجرس مسموع — وهذه هى الأوزان — فاذا اضطربت العواطف واشتجر الشعور وماجت الأحاسيس ، فيجب — لتكون فناً — أن تضبطها الأوزان وتحدها الألفاظ ، ويحكمها التعبير

من فهم هذا المذهب على حقيقته ، فقد فهم أسلوب العقاد ، وتنبه إلى الدقة فى ترتيب المعانى وتنسيق العبارات ، وفى إيراد الألفاظ المعبرة عن المعنى بلا زيادة ولا نقصان

التعبيرات الطائرة ، والأساليب المزوقة ، والجمل المتراقصة ، كل أولئك لا نصيب له فى شعر العقاد ، لأن الشعر أقدس لديه من أن يكون ثوب مهرج ، أو قفزات بهلوان ! وهو كذلك مالك لريشته ، متنبه لتعبيره ، فلا مجال لغير الدقة والقصد والاحكام

هذا كله من جهة ، ومن جهة أخرى أن الأحاسيس والمعانى التى يضطلع بها الأسلوب فى شعر العقاد ليست رخيصة مبتذلة ، ومعظمها ليس متداولا متعارفاً ، وهى على العموم ليست « ملقاة على قارعة الطريق » . فالأسلوب فى شعر العقاد إذن يضطلع بعبء لا يضطلع به عند سواه ، وهو عبء من نتاج الانسانية الممتاز ، ومن ثروة الفن العالى ، ومن الخلاصات النفسية ، فمن حق هذا الأسلوب أن يتريث ويتأنى ، وأن يكون له وقار من وقار المعانى التى يحملها ، وجلال من جلال الأحاسيس التى يصورها ، وأن ينظر فيه أولا إلى مقدار الذخيرة الفنية التى يفيض بها ، وأن تكون الموسيقية الممتازة فيه هى موسيقى المعانى والأفكار والآفاق الجديدة التى يرتادها فى هدوء وعمق وسمو ، لا الموسيقية اللفظية الرخيصة وحدها ، وهى ليست بذات بال

وما أقول هذا لأن شعر العقاد تنقصه هذه الموسيقى اللفظية ففيه الكثير منها ، بل فى هذا الشعر مجموعة من القصائد التى تتوفر فيها هذه الخاصة ، قلما يوجد نظيرها فى دواوين الشعراء الموسيقيين ، كما أن الرصانة والجزالة فى عامة شعر العقاد ملحوظة واضحة .

وإذا شاء أحد أن يأخذ على بعض من ينتمون للمدرسة الحديثة من الشبان قصوراً فى التعبير ، أو عدم عناية بالديباجة العربية السليمة ، فما هو واجد من ذلك شيئاً فى شعر العقاد بالذات ، ودون هؤلاء دواوين العقاد كلها إذا أرادوا

ولكن جماعة ممن يبيحون لأنفسهم أن يقتعدوا مقعد النقاد بلا مؤهلات ، يقسمون المواهب الانسانية تقسيما غريباً ، ولا يسمحون أن يحتاز إنسان لنفسه موهبتين أو أكثر ، كأنما يخشون نفاد هذه المواهب التى بين أيديهم ! فمن كان شاعر معان وأحاسيس ، فما هو بشاعر موسيقى وتعبير ، والعكس بالعكس ، إلا من يشاء لهم «الانصاف البديع» أن ينالوا أكثر من قسط ، وهؤلاء يجب أن يكونوا من خصوم العقاد !

ومن هنا كان العقاد — عند هؤلاء — كاتباً ولم يكن شاعراً ، فاذا سمحوا له بقسط من الشاعرية ، فليكن هذا القسط فى المعانى والأفكار ، وليبق الأسلوب والتعبير وقفاً على طائفة خاصة من غير المغضوب عليهم ، أو من أولئك الشعراء المريحين الذين لا يتعبون هؤلاء المحترمين فى فهمهم وفى التسلق إلى مستواهم الرفيع ، ولتختلف المقاييس حسب اختلاف الأهواء ، فتارة يكون الأسلوب الجيد هو الجزل الرصين ، حين يستعرضون للعقاد بعض القصائد السهلة الرشيقة ، وتارة يكون الأسلوب الجيد هو المذهب اللذيذ حين يعرضون للعقاد بعض القصائد المتينة الرصينة ، ولو أنصفوا أنفسهم وأراحوها لقالوا : إن الأسلوب الجيد هو غير أسلوب العقاد فى كل حالة ، لأن هذا ما يرضى نقصهم وقصورهم حيناً ، وحقدهم وتعنتهم أحياناً !

وهأنذا أفتح الجزء الأول من ديوان العقاد ، وهو الجزء الذى ابتدأ به حياته الشعرية ، وانتهى من نظمه وهو فى الرابعة والعشرين ، وأختار هذا الشعر بالذات ، لأن الشاعر فى إبانه لم تكن قد استقامت له بعد طريق البيان ، ولم يكن مالكا

لريشته وألفاظه ، وكان خليقاً أن يقصر ويعذر فى التقصير

ولكن شيئاً من هذا لا نلمحه فى ديوان الشاعر المبتدئ ، بل إننى لأريد أن أفهم كيف يكون الأسلوب العربى الرصين المشرق ، إذا لم يكن كالقطعة الأولى فى الديوان الأول بعنوان « فرضة البحر » ، حين يقول :

قطبَ السفين وقبلة الربان ... يا ليت نورك نافع وجدانى
يرجى منارك بالضياء كأنه ... أرق بقلب مقلتى ولهان
وعلى الخضم مطارح من ومضه ... تسرى مدلهة بغير عنان
كطارح الأذكار فى لجج على ... لجج من الظلماء والأشجان
تخفى وتظهر وهى فى ظلمائها ... باب النجاة وموئل الحيران

* * *

أمسيتِ أحداقُ السفائن تُترَع ... صُور إليك من البحار روان
كالبيت يجمع بعد تشتيت النوى ... شمل الأحبة فيه والاخوان
جودىٌ كل سفينة لم يبنها ... نوح ولم تمخر على الطوفان
فيها التقى بر وبحر واستوى ... شرق وغرب ليس يستويان
بسطت ذراعيها تودع راحلا ... عنها وتحفل بالغزيل الدانى
زمر توافت للفراق فقاصد ... وطنا ومغترب عن الأوطان
متجاورى الأجساد مفترق الهوى
متباينى اللهجات والألوان

فانظر إلى تلك الوجوه فانها ... شتى ديار جمعت بمكان
فى فرضة متقاصر عن مثلها ... موج أشم أحم لبس وان
موج يطيف بها وتدران الكرى ... فيها طواف الضيغم الغرثان
ألقت مراسيها السفائن عندها ... وتحصنت منها بدار أمان
فكأن ضوء منارها نار القرى ... لو كان يُبعث ميت النيران

بل كيف يكون الأسلوب العربى المشرق إذا لم يكن مثل قصيدة « عزاء » فى الصفحة الثانية من الديوان الأول حين يقول :

يا شاكيا وصبا أحاط بنفسه ... أربعْ عليك لكل يوم كوكب
حمّل فؤادىَ ما يؤودك حمله ... إنى لأجلدُ للهموم وأصلب
أنت النعيم لناظرىَّ وخاطرى ... عجبا وحقك من نعيم بنحب
يشكو من الدنيا الألى لولاهمو ... ما كانت الدنيا تحب وترغب
إما بكيتَ فلستَ أول شارق ... يجلو العيون وقد حواه الشهب
قد كنت تبلغ ما تريد وتشتهى ... لو أن للأيام عينا ترقب
لا يذهبن بك القنوط فربما ... عاد الصباح وأنت لاه تطرب
دمع الشبيبة لا سرمتَ ثمارَه ... يروى به اللب الجنى فيخصب

فأما حين يطلبون الرصانة وقوة الأسر وجزالة الأسلوب وفخامة التعبير ، فان الجزء الأول من ديوان العقاد يجيبهم إلى طلبتهم فى عدة قصائد أذكر منها « وقفة فى الصحراء » وفيها يقول :

هضابكِ أم عذى أواذيّ عيلم ... وهل فيك من ورد نمير التوهم
تخايلتِ كالدنيا وأقفرت مثلها ... فلا تخدعينى إننى لست بالظمى
أيا ربة الآل الخلوب وإنما
إلى الآل ركب الناس جمعاء فاعلمى !
خلوتِ فلا آثار حىٍّ ثوابتٌ ... عليك ولا آثار ميت معظم
نَبا بكِ عن حال العمار وضده ... شماسٌ فلم تبقى ولم تتهدمى
تشابهت الأيام فيك فلم يكن
إلى السعد يومٌ أو إلى النحس ينتمى
صحارى من الدهر الفسيح جديبة ... كمهدك لم تعبس ولم تتبسم
لفيكِ وإن طال الزمان غوارب ... على الناس أخفى من غوارب أنجم
أضاءت عليها النيرات ولم تزل ... هنالك فى ليل من الغيب أيهم

* * *

إلى أى ركن فيك يلجأ هارب ... وفى أي ظل من ظلالك يحتمى
تسدين أرجاء الزمان بحاصب ... من النار موار الهجاجة مظلم
تثور كأفواج الدخان تطلعت ... إلى علو من قرار جهنم
إذا ما رآها الوحش ولى كأنها ... من النقع تجلى عن خميس عرمرم
يلوذ ببطن الأرض والأرض جمرة
خياشيمه م الغيظ يبضضن بالدم
ويذهل حتى يفلت الليث صيده ... ولا تفرق الغزلان من ناب ضيغم
وما سكنتها الوحش إلا لأنها ... أحب إليها من جوار ابن آدم !
وقفت عليها والمطايا تقلنا ... مطايا ثمود قبل ذاك وجرهم
ذميلاً إرتالا وما تستحثها ... مياطير الرمضاء أيان ترتمى

فقلنا بأوجار الضباع فأكرمت على البعد مثوانا ولم تتقدم
كرامة مضطر ويا رب طارئ يكرمه من لم يكن بالمكرم

هذه أو قصيدة « ليلة نابغية » حين يقول :

إلى أي قولي قائل أنت أميل ؟ وعن أي حاليك العشية تسأل؟
عرفت مدى شطر وشطر جهلته فحسبك من بلواك ما لست تجهل
تغوص على الأوجاع بُهراً كأنني بريء من الأوجاع لا أتململ
فيالك من قلب إذا ما تعللت قلوب الورى لم يغن عنك التعلل
تعلق إلا بالمحال رجاؤه وأقسم لا يلهو ولا يتأول
ضمنتَ كدُقاع الضرام لواعجاً أأنت لنيران اللواعج هيكل ؟
فيا من يراني والغؤاد كأنه إذا الليل أضفى قائل يتململ
ويا من يراني والنجوم كأنها نواظر من خوف المنية تقفل
كأن الفضاء لم ير الشمس مرة ولم يسر فيه بدره المتهلل
أبيت وبي ليلان : ليل صباحه يرجّى وليل مدبر الصبح مقبل
أضمد جرحي باليدين وفيهما جراح بقلبها النجيع المسلسل
وأحمل نفسي وهي ولهى طليحة إذا التام منها مقتل سال مقتل
إذا أدبر الليل استرحت وإنما يوكل بي الليل الذي هو أطول

* * *

عفاء على الأضواء ما ذا انتباهتها الا
يالي وليلي آخر الدهر مسبل
فياشهب خطي بالرجوم على الدجى
وياصبح فاسمعني وياناس فاقلوا
ضؤلت سراجا ياشموس إذا خبا سراجي وليلي قاتم الجنح أليل

فأما حين يطلبون السلاسة والعذوبة ، فما أكثر ما يجيبهم ديوان العقاد الأول وحده إلى ما يطلبون ، وأقرب ما تقع عليه العين قصيدة الحب الأول ونقتطف منها قوله :

يهنيك يازهر أطيار وأفنان الطير ينشد والأفنان عيدان
طوباك لست بانسان فتشبهني إني ظمئت وأنت اليوم ريان
هذا الربيع تجلى في مواكبه وهكذا الدهر آنا بعده آن
تفتحت عنه أكمام السماء رضىً وزفه من نعيم الخلد رضوان
وشائع النور في البستان باسمة والأرض حالية والماء جذلان
الشمس تضحك والآفاق صافية جلواء والروض بالأنهار فينان
وللنسيم خفوق في جوانبه وللطيور ترانيم وألحان
في كل روض قرى للزهر يعمرها ياحبذا هي أبيات وسكان
مستأنسات سرى ما بينها عبق كما تراسل بالأشواق خلان
الورد يحمر عجبا في كمائمه والياسمين على الأغصان ميسان
وللقرنفل أثواب ينوعها عن البلور صناع الكف رقان
وللبنفسج أمساح ممسكة كأنه راهب في الدير محزان
وحبذا زهر الليمون يسكرنا منهن جام خمور من بنات الحان
والليل يحييه والأطيار هاجعة بلابل وشحارير وكروان
مؤذن الطير يدعو فيه محتسبا فيستجيب له بر وغيان
والصبح في حلل الأنوار طرزه في الشرق والغرب أسحار وأصلان
كأنما الأرض في الفردوس سابحة يحدو خطاها من الأملاك ربان
ضاق الفضاء بما يحويه من فرح فكل مافي فضاء الله فرحان
... الخ ... الخ

وعلى قيد صفحات من هذه القصيدة الرائقة الرائعة تجد « ليلة الأربعاء » وفيها يقول :

شف لطفاً عما وراء السماء نور بدر مفضض اللألاء
رق سجف السماء حتى كأن الـ ـعين تتلو هناك سر القضاء
وسرى الطرف في الفضاء فما يثـ ـنيه ثان عن خوض ذاك الفضاء
وربا النور كالعباب فما في الـ ـكون غير الظلال من ظلماء
تلك أولى لوائح الصيف والصيـ ـف بهيج في الليلة القمراء
يمن الله سعيه من رسول يطرق الأرض وافداً من ذكاء
مولد الأرض فهي تلبس فيه كل عام مطارف الأضواء
أضرم الجو بالمشاعل كالظبا فر يعدو في إثر جند الشتاء

إلى أن يقول في عذوبة رقيقة :

ليلة الأربعاء بالله عودى وأعيـــدى بالليلة الأربعاء
ليلة أرسل الزمان بها عف وأ فجاءت كحكمة البلهاء
قد نسينا الصباح حتى ذكرنا ه بنور من بدرها الوضاء
فوصلنا مساءها بصباح ووصلنا صـــباحها ء ا
وشربنا ونحن مرضى من الهم دواء أنعم به من دواء

ثم يقول من هذه القصيدة :

أين لا أبعد المهيمن داراً لك يامن أجله عن ندائى
أذكرتنى بك الكواكب والبد ر ونفح الرياض والصهباء
أنت أنصى منى ضمائر نوسة ت لبانت فى غيطة ودساء
أنت شمس لهيبها فى فؤادى أنت نور لظاه فى أحشائى
أنت عندى كليلة القدر فى الدهـ ر ولكن لن تستجيب دعائى
تتجلى فى كل حسن فأرعا ك وأنسى محاسن الأشياء

... الخ

* * *

تلك نماذج مختلفة من أسلوب العقاد فى أول ديوان يصدره منذ خمسة وعشرين عاما مرن فيها على النظم ، واستجابت له التراكيب وسلس له التعبير ، وتهيأ له خلالها ما يتهيأ لأى شاعر عادي من المران والدربة والأتقان .

فاذا استثنينا بالجزء الأول وحده ، فنحن واجدون للعقاد كثيرا من شعر الأساليب الفخمة الجزلة ، والأساليب الرصينة المتينة ، والأساليب العذبة السلسة ، وكل ما يعنيه الأسلوبيون ببدائع الأسلوب . ودع عنك ما وراء أسلوب العقاد من عرفان وفكر وأحاسيس وعوالم واسعة من الفن الفريد

فماذا يريد إخواننا الرافعيون ؟

إنهم ليستفشون ثيابهم ويضعون أصابعهم فى آذانهم ، ويذهبون ويتجنون وينكرون ، وما على العقاد ولا على المدرسة الحديثة منهم ، بل لا كانت هذه المدرسة إذا كانت تنظر إلى رجال الأقدمين !

« حلوان »

سيد قطب

العـــزلة

للشاعرة ايلا هويلر ويلككس

بقلم السيدة فلة فهمى

إضحك ، يضحك معك العالم
إبك ، تبك وحدك
على الأرض الحزينة الهرمة أن تنشد سرورها ،
لكن لديها من الهم الكفاية .
غن ، تردد غناءك التلال ،
ولكن تنهداتك تتبخر فى الفضاء .
يلتقط الصدى الصوت الطروب
لكنه يحجم عن الصوت الحزين

* * *

إن تبتهج ، سعى إليك القوم ،
وإن تحزن ، ولوا عنك .
إنهم ليرغبون فى أكبر قسط من لذاتك
بيناهم فى غير حاجة إلى هموم نفسك .
كن طروباً ، يكثر أصدقاؤك
وكن حزيناً ، تفقدهم جميعاً .
ليس هناك من يعف عن رحيق خمرك
لكن عليك وحدك أن تكرع علقم الحياة

* * *

أولم تزدحم قاعاتك
صُمّ ، ينصرف عنك العالم .
إبحح واصبح ، فذلك يعينك على الحياة
لكن ليس من يستطيع أن يحمل عنك آلامك
هناك مكان فى قاعات السرور . . .
لكل من يقطع مرحلة الحياة الشاقة ،
لكن علينا أن نجتاز واحداً فواحداً
ممر الألم الضيق . . .

فلة فهمى